

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين، باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا وحبيب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين، سيما خليفة الله في الأرضين، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

المجاهدون والنهضويون

في مرحلة بناء الأمة

(٦)

قال الله العظيم في كتابه الكريم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ (١).
من الأرضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا... ﴿١﴾.

من بصائر النور في آية الاستعمار

البصيرة الأولى: استحباب إعمار الأرض وقصد القرية بإعمارها

ومن البصائر القرآنية في هذه الآية الكريمة انه قد يستفاد منها استحباب إعمار الأرض وصحة قصد القرية بإعمارها، والاستحباب مبني على دعوى الملازمة بين مطلوية الشيء للشارع وبين استحبابه، أما قصد القرية فان أمره أهون لبداية صحة قصد التقرب إلى المولى في كل ما ثبتت مطلوبيته له.

وعلى ذلك فانه يمكن التقرب إلى الله تعالى بكافة أنحاء إعمار الأرض من زراعة وحرث وريّ ومن شق الجداول والأنهار ومن إصلاح الطرق وتعبيدها وحفر الأنفاق وبناء الجسور واستحداث الحدائق والغابات، وكذلك إعمارها ببناء المعامل والمصانع والبيوت وغيرها إضافة إلى إعمارها بالمساجد والحسينيات والمكتبات والمدارس والمستشفيات وغيرها، وقبل ذلك إعمارها بالعبادة والسجود والركوع والصلاة في أرجائها.

وذلك كله مبني على صدق (الإعمار) عرفاً وبالحمل الشائع على ذلك كله ونظائره وان الانصراف إلى بعضها إن كان فبدوي. فتأمل

وعليه: فللمزارع والمقاول والبناء وغيرهم قصد القرية في أعمالهم وأفعالهم هذه، والأثر التربوي والعمري لذلك كبير جداً؛ أما الأثر التربوي؛ فلأن لكل إنسان انشغل بنوع من أنواع إعمار الأرض أن يقصد القرية فتكون كافة أنواع الإعمار روابط للبشرية إلى الله تعالى فكما ان الصلاة هي حلقة ربط بالله تعالى مذكرة به فكذلك تكون الزراعة والصناعة وسائر الأعمال لو استحضر الإنسان هذا المعنى العظيم وقصد القرية لله تعالى - على اختلاف في الدرجات طبعاً -.

وأما الأثر العمري؛ فلأن ذلك مما يزيد محركة الناس في كافة أرجاء الأرض ويقوي من باعثيتهم للعمل في إعمار الأرض إذ يجدون أن في ذلك الأجر والثواب أيضاً إضافة إلى انه مما تقوم به دنياهم وتصلح به أمورهم.

البصيرة الثانية: استعمار الجميع أو المجموع لجميع الأرض أو مجموعها

ان المحتملات في ﴿اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هي أربعة:

إذ قد يكون المراد استعمار الجميع - أي جميع البشر - للجميع أي لجميع قطعات الأرض، فالعمران مطلوب من الجميع للجميع.

وقد يكون المراد استعمار المجموع للجميع.

وقد يكون المراد استعمار المجموع للمجموع.

وقد يكون المراد استعمار الجميع للمجموع.

والمراد من (الجميع) الآحاد أي كل فرد فرد من أفراد البشر وكل قطعة قطعة من قطعات الأرض، والمراد من (المجموع) ما كانت الهيئة الاجتماعية ذات مدخلية فيه بحيث يكون كل فرد جزءاً من صورة أوسع ومن مكوّن أكبر أي من منظومة عمرانية متكاملة أو من مجموعة بشرية متماسكة.

فالآحاد: مثل زيد وعمرو وبكر وهكذا المجموع: كالحزب والعشيرة والاتحادية والنقابة ثم الشعب فالأمة، إذ قد يتصدى هذا الفرد أو ذلك لإعمار هذه الأرض أو تلك وقد يتصدى الحزب الحاكم أو المعارض أو مجموع الأحزاب لإعمار الأرض والبلاد أو تتصدى العشيرة أو النقابة مثلاً وقد يتصدى الشعب كله لإعمار الأرض في خطة متكاملة متناسقة.

والأرض كذلك فقد نعمّر هذه الأرض وتلك وتلك دون خطة عمرانية جامعة متكاملة، وقد يعمر كل فرد كل قطعة في ضمن مخطط عمراني شامل بحيث يكون كل عمل وإعمار متكامل مع العمل والإعمار الآخر حتى تكون مخارج ذلك كله مدينة متكاملة تستوعب كافة حاجات الناس بتناسب وتناغم وانسيابية.

وبذلك يظهر أن المقصود من ﴿اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ ليس إعمار كل الأراضي فقط، بل ان يكون بنحو متكامل متجانس متناغم فانه يصدق عليه بالحمل الشائع انه عمران واستعمار بل هو المصداق الأجلى للعمران والاستعمار.

وجوه الجمع بين طوائف الروايات حول الغنى والفقير

لقد سبقت وجوه للجمع بين طوائف الروايات التي تبدو بظاهرها متعارضة في التحريض نحو الغنى والثروة أو التثبيط عنها، وفي مدح الفقر والتقشف والزهد من جهة ثانية أو في ذم الفقر.

وكان من الوجوه أن الزهد والتقشف والفقر أو العيش كحياة الفقراء مطلوب من القادة والمسؤولين ومن هو في موقع متقدم تربوي توجيهي أو قيادي أو عملي وان الغنى مطلوب لعامة الناس.

٥- التقشف في مرحلة النهضة وبناء الأمة

ونضيف ههنا أمراً آخر يصلح أن يُعدّ وجهاً مستقلاً وهو:

ان التقشف والزهد والعيش عيش الفقراء مطلوب من عامة الناس أو من أكثريتهم^(١) إذا كانت الأمة في حالة النهضة الشاملة: النهضة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية والفكرية والثقافية والعسكرية وغيرها، وحينئذ يكون المطلوب من الجميع تجنيد كافة الطاقات والإمكانات والثروات لاستنهاض الوضع العام، وعليهم عدم تكديس الثروات ولا الانشغال بالماديات والكماليات والجماليات وهوامش الحياة وذلك لأن كل ذلك يشكل عائقاً أمام حركة الأمة السريعة الشاملة نحو بناء

(١) أو من شرائح واسعة، وذلك على حسب ان النهضة تتوقف على مساهمة الجميع أو الأكثرية أو مجرد شرائح واسعة من المجتمع.

وحيث كان الرسول الأعظم ﷺ في حالة نهضة شاملة إذ كان في طور تشييد دعائم دين سماوي خالد وفي مرحلة بناء أمة وحضارة لذلك دفع الأمة الإسلامية دفعاً لصب كافة الطاقات في طريق هذا الهدف الأسمى وعدم الانشغال بجمع الأموال وتوافه الحياة بل وحتى الكماليات كلما اصطدم ذلك بهذا المشروع السماوي العظيم.

ولعل لذلك لم يقسم ﷺ الثروات الكبرى التي نالها في معركة حنين على المسلمين بل قسمها على المؤلفلة قلوبهم، حتى ضج المسلمون بالاستنكار ودهشوا لذلك واعترض الكثيرون منهم فقال رسول الله لهم «إِنِّي سَأَلْتُكُمْ عَنْ أَمْرِ فَأَجِيبُونِي عَنْهُ، فَقَالُوا: قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَلَسْتُمْ كُنْتُمْ ضَالِّينَ فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي، فَقَالُوا بَلَى فَلِلَّهِ الْمِنَّةُ وَلِرَسُولِهِ قَالَ أَلَمْ تَكُونُوا عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمُ اللَّهُ بِي قَالُوا بَلَى فَلِلَّهِ الْمِنَّةُ وَلِرَسُولِهِ قَالَ أَلَمْ تَكُونُوا قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمُ اللَّهُ بِي قَالُوا بَلَى فَلِلَّهِ الْمِنَّةُ وَلِرَسُولِهِ قَالَ أَلَمْ تَكُونُوا أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ بِي قَالُوا بَلَى فَلِلَّهِ الْمِنَّةُ وَلِرَسُولِهِ.

ثُمَّ سَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ هَيْبَةً ثُمَّ قَالَ أَلَا تُحِيبُونِي بِمَا عِنْدَكُمْ قَالُوا بِمَ نُحِيبُكَ فِدَاؤُكَ آبَاؤُنَا وَأُمَّهَاتُنَا قَدْ أَجَبْنَاكَ بِأَنَّ لَكَ الْفَضْلَ وَالْمَنَّ وَالطَّوْلَ عَلَيْنَا قَالَ أَمَا لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ وَأَنْتَ قَدْ كُنْتَ جِئْتَنَا طَرِيدًا فَأَوْيْنَاكَ وَجِئْتَنَا خَائِفًا فَأَمَّاكَ وَجِئْتَنَا مُكَذِّبًا فَصَدَّقْنَاكَ.

فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ بِالْبُكَاءِ وَقَامَ شُيُوحُهُمْ وَسَادَاتُهُمْ إِلَيْهِ فَقَبَّلُوا يَدَيْهِ وَرَجَلَيْهِ ثُمَّ قَالُوا رَضِينَا بِاللَّهِ وَعَنْهُ وَبِرَسُولِهِ وَعَنْهُ وَهَذِهِ أَمْوَالُنَا بَيْنَ يَدَيْكَ فَإِنْ شِئْتَ فَافْسِمَهَا عَلَى قَوْمِكَ وَإِنَّمَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنَّا عَلَى غَيْرِ وَغَيْرِ صَدْرٍ وَغِلٍّ فِي قَلْبٍ وَلَكِنَّهُمْ ظَنُّوا سَخَطًا عَلَيْهِمْ وَتَقْصِيرًا لَهُمْ وَقَدْ اسْتَغْفَرُوا اللَّهَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ فَاسْتَغْفِرَ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَلَا بُنَاءَ لِلْأَنْصَارِ وَلَا بُنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَرْجِعَ غَيْرُكُمْ بِالشَّاءِ وَالنَّعَمِ وَتَرْجِعُونَ أَنْتُمْ وَفِي سَهْمِكُمْ رَسُولُ اللَّهِ قَالُوا بَلَى رَضِينَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَئِذٍ الْأَنْصَارُ كَرِشِي وَعَيْبَتِي لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكَتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ»^(١)

التقشف في حياة رسول الله ﷺ

ومما يكشف عن ملامح هذا المنهج ما ورد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُفْطِرُ عَلَى الْأَسْوَدَيْنِ؟ قُلْتُ رَحِمَكَ اللَّهُ: وَمَا الْأَسْوَدَانِ؟ قَالَ: التَّمْرُ وَالْمَاءُ وَالزَّبِيبُ وَالْمَاءُ وَيَتَسَحَّرُ بِهِمَا»^(٢) كما قالت عائشة «مَا زَالَتِ الدُّنْيَا عَلَيْنَا عَسِرَةً كَدِيرَةً حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا قُبِضَ صَبَّتِ الدُّنْيَا عَلَيْنَا صَبًّا»^(٣) و«عن عائشة انها قالت: كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله ﷺ نار ولا مصباح، قيل لها: فبم كنتم تعيشون؟ فقالت: بالأسودين التمر والماء»^(٤).

(١) الشيخ المفيد: الإرشاد، جزءان في مجلد واحد، الناشر: المؤتمر للشيخ المفيد - قم، ١٤١٣ هـ، ج ١ ص ١٤٥.

(٢) الشيخ الطوسي، التهذيب، عدد الأجزاء: ١٠، دار الكتب الإسلامية - طهران، ج ٤ ص ١٩٨.

(٣) الحسن بن الفضل الطبرسي، مكارم الأخلاق، دار الشريف الرضي - قم، ١٤١٢ هـ، ص ٢٩.

(٤) سنن ابن ماجه.

تناقض منهج الصحابة كما تكشف عنه عائشة

والغريب ان عائشة تكشف - من حيث تدري أو لا تدري - عن أمرين في غاية الخطورة:

الأول: ان النبي ﷺ كان قد أمسك زمام الأمور بكل قوة وشدة كي لا تخضم أزواجه وقرباته مال الله خضم الإبل نبتة الربيع، فمع ان الثروات الهائلة كانت تصب على الرسول الأعظم صباً من كل الجهات من الغزوات والحروب والفتوحات وغيرها، وكانت ثروات مذهلة حقاً، إلا انه ﷺ لم يسمح حتى لعائلته ان تعيش عيشة الأمراء بل ولا عيشة الطبقة المتوسطة بل «مَا زَالَتِ الدُّنْيَا عَلَيْنَا عَسْرَةً كَدِرَةً حَتَّى فُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ...».

الثاني: ان الدنيا صبت على عائشة ونظائرها بعد رسول الله ﷺ صباً، وكان ذلك خلافاً لمنهج رسول الله ﷺ لكن الانقلاب على الأعقاب كان شمولياً في كل الجهات ومنها هذه الجهة إذ حدث الانقلاب في طريق التعاطي مع ثروات البلاد بمجرد ان فُبِضَ رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾^(١).

وقد استمر الانقلاب طوال فترة الخلفاء الثلاثة حتى إذا رجع الأمر إلى أمير المؤمنين ع عليه السلام أعاد الأمور إلى نصابه الصحيح فقسم بيت المال على عامة المسلمين وساوى بين أعظم الصحابة والقادة والساسة والمسؤولين وكبار القوم وبين عامة الناس حتى ثار عليه أمثال طلحة والزبير وغيرهم ممن اعتادوا على المفاضلة في العطاء وعلى قطائع عثمان وغيرها.

لو استمرت النهضة المحمدية لصارت الأرض فردوساً، ولكنهم انقلبوا على الأعقاب

والسبب في المعادلة واضح فان نهضة الرسول ﷺ الشاملة كان يجب لها أن تستمر بعد شهادته بقيادة وصيه علي ع عليه السلام كي تترسخ دعائمها وتؤتي أكلها وثمارها كاملة فكان الواجب الاستمرار على هذا المنهج حتى ينضج ويثمر كامل أثماره، لكن الانقلاب أطاح بكثير من المنجزات وبالعديد من البنى التحتية الأساسية لنهضة الأمة ومنه التقشف العام والزهد وصب كل شيء في طريق الهدف.

صمود القلة من الصحابة على المنهج النبوي

ولذا نجد في الاتجاه المقابل ان الثلة الطيبة من الأقلية التي آمنت بالرسول الأعظم ﷺ قولاً وفعلاً والتزمت بمنهجه سراً وجهراً، بقيت ملتزمة بهذا المنهج حتى بعد شهادة الرسول ﷺ وتكشف عن ذلك روايات عديدة ومنها الرواية التالية:

تحسر سلمان لأنه امتلك سيفاً وجفنة ودستاً!

«تَحَسَّرَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ مَوْتِهِ، فَقِيلَ لَهُ: عَلَامَ تَأْسُفِكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَيْسَ تَأْسُفِي عَلَى الدُّنْيَا وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَهْدَ إِلَيْنَا وَقَالَ لِيَكُنْ بُلْعَةُ أَحَدِكُمْ كَزَادِ الرَّكِبِ وَأَخَافُ أَنْ نَكُونَ قَدْ جَاوَزْنَا أَمْرَهُ وَحَوْلِي هَذِهِ الْأَسَاوِدُ وَأَشَارَ إِلَى مَا فِي بَيْتِهِ وَقَالَ: هُوَ دَسْتُ وَسَيْفٌ وَجَفَنَةٌ»^(٢)

والدست من الثياب: ما يلبسه الانسان ويكفيه لتردده في حوائجه، وقيل كلما يلبس من العمامة إلى النعل، والجمع "

(١) سورة آل عمران: آية ١٤٤.

(٢) أحمد بن فهد الحلبي، عدة الداعي، دار الكتاب الإسلامي - قم، ١٤٠٧ هـ، ص ١١٥.

دسوت " مثل فلس وفلوس^(١)، والجفنة هي القصة الكبيرة.

أي ان سلمان الذي مات بعد شهادة الرسول ﷺ بسنين ورغم انه كان حاكماً للمدائن (إيران والعراق) معاً إلا انه كان لا يملك إلا جفنة وطقم واحد من الثياب وسيف فقط، ومع ذلك كان يخشى أن لا يكون قد التزم وصية رسول الله ﷺ! ولو بقيت أزمة الأمور بيد الإمام علي عليه السلام وأمثال هؤلاء الصحابة لاستمرت النهضة وأثمرت وأورقت واينعت بأفضل الثمار ولتحولت الأرض إلى الجنة التي وعدناها في زمن الظهور المبارك.

ريشة الزهراء (عليها السلام) ترسم لوحة شاملة للانقلاب على النبي ﷺ وآثاره

وفي اللوحة التاريخية التحليلية الآتية التي ترسمها الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء (عليها السلام) نجد الصورة الكبرى الشاملة لما كان عليه أصحاب رسول الله، ولما صاروا عليه، ولما كان يجب عليهم ان يكونوا عليه، قالت الزهراء (عليها السلام): «أَصْبَحْتُ وَاللَّهِ عَائِفَةً لِدُنْيَاكُنَّ قَالِيَةً لِرِجَالِكُنَّ لَفْظَتْهُمُ بَعْدَ أَنْ عَجَمْتُهُمْ وَشَنَنْتُهُمْ بَعْدَ أَنْ سَبَرْتُهُمْ فُقُبْحاً لِقُلُوبِ الْحَدِّ وَاللَّعِبِ بَعْدَ الْجِدِّ وَقَرَعِ الصَّفَاةِ وَصَدَعِ الْقَنَاةِ وَخَطَلَ الْأَرَاءِ وَزَلَلَ الْأَهْوَاءِ وَبَسَسَ ﴿مَا قَدَّمْتُ لَهُمْ أَنْفُسَهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾^(٢) لَا جَرَمَ لَقَدْ قَلَّدْتُهُمْ رِبْقَتَهَا وَحَمَلْتُهُمْ أَوْفَتَهَا وَشَنَنْتُ عَلَيْهِمْ غَارَهَا فَجَدَعاً وَعَقْرًا وَ﴿بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

وَيَحْتُمُ أَنِّي زَعَرْتُهَا عَنْ رَوَاسِي الرِّسَالَةِ وَقَوَاعِدِ النُّبُوَّةِ وَالِدَّلَالَةِ وَمَهَبِطِ الرُّوحِ الْأَمِينِ وَالطَّبِينِ بِأُمُورِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾^(٤) وَمَا الَّذِي نَقَمُوا مِنْ أَبِي الْحَسَنِ نَقَمُوا مِنْهُ وَاللَّهِ نَكِيرَ سِنْفِهِ وَقِلَّةَ مُبَالَاتِهِ بِحَنْفِهِ وَشِدَّةَ وَطْأَتِهِ وَنِكَالٍ وَقَعْتِهِ وَتَنَمَّرَهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ.

وَتَاللَّهِ لَوْ مَالُوا عَنِ الْمَحَجَّةِ اللَّائِيحَةِ وَزَالُوا عَنْ قَبُولِ الْحُجَّةِ الْوَاضِحَةِ لَرَدَّهُمْ إِلَيْهَا وَحَمَلَهُمْ عَلَيْهَا وَلَسَارَ بِهِمْ سَيْرًا سُجْحًا لَا يَكْلُمُ خَشَاشُهُ وَلَا يَكِلُ سَائِرُهُ وَلَا يَمَلُّ رَاكِبُهُ وَلَا أُوْرَدُهُمْ مِنْهَا نَمِيرًا صَافِيًا رَوِيًّا تَطْفُحُ ضَفَّتَاهُ وَلَا يَتَرَنَّقُ جَانِبَاهُ وَلَا صَدْرُهُمْ بِطَانًا وَنَصَحَ لَهُمْ سِرًّا وَإِعْلَانًا وَلَمْ يَكُنْ يُحَلِّي مِنَ الْغِنَى بِطَائِلٍ وَلَا يَحْطِي مِنَ الدُّنْيَا بِنَائِلٍ غَيْرَ رِيِّ النَّاهِلِ وَشُبُعَةِ الْكَلِّ وَلَبَانَ لَهُمُ الرَّاهِدُ مِنَ الرَّاغِبِ وَالصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٥) ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾^(٦).

أَلَا هَلُمَّ فَاسْتَمِعْ وَمَا عَشْتِ أَرَاكَ الدَّهْرَ عَجَبًا ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾^(٧) لَيْتَ شِعْرِي إِلَى أَيِّ سِنَادٍ اسْتَنْدُوا

(١) الشيخ فخر الدين الطريحي، مجمع البحرين: ج ٢ ص ٣٠.

(٢) سورة المائدة: آية ٨٠.

(٣) سورة هود: آية ٤٤.

(٤) سورة الزمر: آية ١٥.

(٥) سورة الأعراف: آية ٩٦.

(٦) سورة الزمر: آية ٥١.

(٧) سورة الرعد: آية ٥.

وَعَلَىٰ أَيِّ عِمَادٍ اعْتَمَدُوا وَبِأَيِّ عُرْوَةٍ تَمَسَّكُوا وَعَلَىٰ أَيِّ ذُرِّيَّةٍ أَقْدَمُوا وَاحْتَنَكُوا لِبَنَسِ الْمَوْلَىٰ وَلِبَنَسِ الْعَشِيرِ وَبَنَسِ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا اسْتَبَدَّلُوا وَاللَّهِ الدَّنَابِي بِالْقَوَادِمِ وَالْعَجَزُ بِالْكَاهِلِ فَرَعْمًا لِمَعَاطِسِ قَوْمٍ ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾^(١) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾^(٢) وَيُنْحَهُمْ ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(٣).

أَمَّا لَعْمَرِي لَقَدْ لَقِحتْ فَنَظِرَةً رِيثَمَا تُنْتَجِ ثُمَّ احْتَلَبُوا مِلءَ الْقَعْبِ دَمًا عَيْطًا وَدَعَا فَا مَبِيدًا هُنَالِكَ يَخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ وَيُعرفُ التَّالُونَ غَبَّ مَا أُسِّسَ الْأَوْلُونَ ثُمَّ طَبَّوْا عَنْ دُنْيَاكُمْ أَنْفُسًا وَأَطْمَئَنُوا لِلْفِتْنَةِ جَاشًا وَأَبْشَرُوا بِسَيْفِ صَارِمٍ وَسَطْوَةِ مُعْتَدٍ غَاشِمٍ وَبَهْرَجِ شَامِلٍ وَاسْتَبَدَادِ مِنَ الظَّالِمِينَ يَدْعُ فَيَتَّكُمُ زَهِيدًا وَجَمَعَكُمْ حَصِيدًا فَيَا حَسْرَةً لَكُمْ وَأَنَّى بِكُمْ وَقَدْ عَمِيَتْ عَلَيْكُمْ أُنْزِلُكُمْ مَوَاهِجًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ...»^(٤).

أَمُودِجٍ مِنْ زَهْدِ ابْنَةِ الرَّسُولِ، وَقَوْلُهُ ﷺ «إِنَّ ابْنَتِي لَفِي الْخَيْلِ السَّوَابِقِ»

وَعُودًا إِلَى نُحْضُوبَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَأَصْحَابِهِ، نَسْتَحْضِرُ الْقِصَّةَ التَّالِيَةَ ذَاتِ الدَّلَالَاتِ الشَّامِلَةِ الْعَمِيقَةِ الْمُتَعَدِّدَةِ الْأَبْعَادِ:

«مِنْ كِتَابِ زُهْدِ النَّبِيِّ ﷺ لِأَبِي جَعْفَرٍ أَحْمَدَ الْقُمِّيِّ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾^(٥) بَكَى النَّبِيُّ ﷺ بُكَاءً شَدِيدًا وَبَكَتْ صَحَابَتُهُ لِبُكَائِهِ وَلَمْ يَدْرُوا مَا نَزَلَ بِهِ جَبْرَيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنْ صَحَابَتِهِ أَنْ يُكَلِّمَهُ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا رَأَى فَاطِمَةَ (عَلَيْهَا السَّلَامُ) فَرِحَ بِهَا، فَانْطَلَقَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ إِلَى بَابِ بَيْتِهَا فَوَجَدَ بَيْنَ يَدَيْهَا شَعِيرًا وَهِيَ تَطْحَنُ فِيهِ وَتَقُولُ: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^(٦) فَسَلَّمَ عَلَيْهَا وَأَخْبَرَهَا بِخَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَبُكَائِهِ فَنَهَضَتْ وَالتَفَّتْ بِشِمْلَةٍ لَهَا خَلْقَةٌ قَدْ خِيَطَتْ فِي اثْنِي عَشَرَ مَكَانًا بِسَعْفِ النَّخْلِ، فَلَمَّا خَرَجَتْ نَظَرَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيُّ إِلَى الشِّمْلَةِ وَبَكَى وَقَالَ: وَاحْزَنَاهُ إِنْ بَنَاتٍ قَيْصَرَ وَكَسَرَى لَفِي السُّنْدُسِ وَالْحَرِيرِ وَابْنَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَيْهَا شِمْلَةٌ صُوفٍ خَلْقَةٌ قَدْ خِيَطَتْ فِي اثْنِي عَشَرَ مَكَانًا.

فَلَمَّا دَخَلَتْ فَاطِمَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ سَلْمَانَ تَعَجَّبَ مِنْ لِبَاسِي، فَوَ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا لِي وَلِعَلِّي مُنْذُ خَمْسِ سِنِينَ إِلَّا مَسَكَ^(٧) كَبَشٍ نَعْلِفُ عَلَيْهَا بِالنَّهَارِ بَعِيرَنَا فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ افْتَرَشْنَاهُ وَإِنْ مَرَفَقَتَنَا لَمِنْ

(١) سورة الكهف: آية ١٠٤.

(٢) سورة البقرة: آية ١٢.

(٣) سورة يونس: آية ٣٥.

(٤) أبو منصور، أحمد بن علي الطبرسي، الاحتجاج، جزوان في مجلد واحد، نشر المرتضى - مشهد، ١٤٠٣ هـ، ج ١ ص ١٠٨.

(٥) سورة الحجر: آية ٤٣-٤٤.

(٦) سورة القصص: آية ٦٠، وسورة الشورى: آية ٣٦.

(٧) والمَسَكَ: بفتح الميم هو الجلد أي جلد الخروف والجمع مسوك. (مجمع البحرين: ج ٤ ص ٢٠٤).

دروس في التفسير والتدبر (٢٦٠)الأربعاء ٢١ رجب ١٤٣٨ هـ

أَدَمَ^(١) حَشُوَهَا لَيْفٌ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَا سَلْمَانَ إِنَّ ابْنَتِي لَفِي الْخَيْلِ السَّوَابِقِ، ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَتِ فَدَيْتُكَ مَا الَّذِي أَبْكَأَكَ فَذَكَرَ لَهَا مَا نَزَلَ بِهِ جَبْرَائِيلُ مِنَ الْآيَاتِينَ الْمُتَقَدِّمَتِينَ...»^(٢).

دروس وعبر في رواية سلمان

وفي هذه القصة المذهلة في كافة أبعادها، عبر مفتاحية كثيرة ولكن سنقتصر على موطن الشاهد وبعض العبر والدروس فقط، إذ ان الذي يبدو:

١- ان سلمان قصد بتصريحه ذلك «وَاحْزَنَاهُ إِنَّ بَنَاتٍ قَيْصَرَ وَكِسْرَى لَفِي السُّنْدُسِ وَالْحَرِيرِ وَابْنَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَيْهَا شَمْلَةٌ صُوفٍ خَلَقَةٌ قَدْ خِيَطَتْ فِي اثْنِي عَشَرَ مَكَانًا» ان تبلغ هذه الصورة النموذجية للعالم كله لتكون حجة على كافة خلائق الله وانموذجاً لكافة القادة والمسؤولين وبناتهم وأقربائهم.

٢- وان الزهراء (عليها السلام) تعمدت ان تعلن للملأ أمام أبيها المصطفى انها وعلي كانا كذلك «فَوَ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا لِي وَلِعَلِّي مُنْذُ خَمْسِ سِنِينَ إِلَّا مَسَكْتُ كَبْشٍ نَعْلِفُ عَلَيْهَا بِالنَّهَارِ بَعِيرَنَا فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ افْتَرَشْنَاهُ وَإِنَّ مِرْفَقَتَنَا لَمِنْ أَدَمَ حَشُوَهَا لَيْفٌ» ليكون درساً بليغاً لكل الأجيال على مر الأزمان وليحظى ذلك بتوقيع الرسول الأعظم وتصديقه كي لا يبقى مجال لتكذيب المرجفين وتشكيك المشككين وكي يكون فيه أكبر العبرة والعظة للنهضويين.

٣- وان الرسول ﷺ صرح «يَا سَلْمَانَ إِنَّ ابْنَتِي لَفِي الْخَيْلِ السَّوَابِقِ» كي تكون شهادة صريحة واضحة لها بذلك على مر التاريخ.

الفرق بين التقشف الطوعي والتقشف القسري

وبذلك وغيره نعرف احدى الفوارق الرئيسية بين فاطمة الزهراء (عليها السلام) من جهة وبين أمثال عائشة من جهة أخرى: فلقد كان فقر عائشة قسرياً لا يد لها فيه ولا حيلة ولم يكن طوعياً وقد كشف عن ذلك موقفها من الثروة بعد رسول الله ﷺ حيث صبت عليها الدنيا صباً فاستجابت لها أية استجابة!

أما الزهراء وعلي (عليهما السلام) فقد كان زهدهما طوعياً إذ كانت اسهم علي ﷺ من نصيبه من اسهم الغزاة والمجاهدين كبيرة جداً ولو شاء أن يعيش بها وأهله عيشة مميزة مادياً لفعلوا ذلك لكنهم لم يفعلوا أبداً، بل لو أراد ﷺ أن يعمل بعض الوقت ليدرّ على أهله بالرزق درأً لاممكنه، لكنه ابي إلا تجنيد كل الطاقات والثروات في سبيل إعلاء راية (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ) في الأرض.

والذي يدل أيضاً على الطوعية ان الزهراء (عليها السلام) كانت تنفق حتى القليل الضئيل مما تملك كما مضى في رواية سابقة وكما تدل عليه عشرات الروايات بل وتشهد له آية ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾^(٣).

(١) وأدم: بفتح تين جمع آدم وهو الجلد المدبوغ. (مجمع البحرين: ج ١ ص ٥٤).

(٢) السيد علي بن موسى بن طاووس، الدرر الواقية، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ص ٢٧٤-٢٧٦. ونقله المجلسي في بحار الأنوار ج ٤٣ ص ٨٧.

(٣) سورة الإنسان: آية ٨ - ٩.

ويكشف عن ذلك كله أن علياً وأصحابه الأوفياء كسلمان وغيره لم يغيروا بعد رسول الله ﷺ سيرتهم ومسيرتهم بل بقوا متقشفين زهاداً عكس ما صنعت عائشة وعثمان ومعاوية والكثير غيرهم من الصحابة!
وهذه الرواية تعطينا تصوراً شاملاً عن المدينة الفاضلة التي أرسى دعائمها الرسول ﷺ والتي لو استمرت لكانت الجنة الحقيقية على وجه الأرض.

النهضة على مستوى الأفراد وعلى مستوى الأمم

ثم ان النهضة قد تكون على مستوى الفرد وقد تكون على مستوى الأسرة أو الحزب أو العشيرة وقد تكون على مستوى الشعب أو الأمة.

وعلى كل التقادير فان الشرط الأساسي لنجاح النهضة هو الزهد فيما عدا الهدف الذي اختطه الفرد أو التجمع لنفسه، فإذا كان الهدف رسالياً سامياً كان التقشف والعيش عيشة الفقراء أو الإعراض عن الثروة والماديات والفقير بنفسه هو الطريق الأقصر والأسلم والأسمى للوصول إلى الأهداف.

نهضوية العلامة الأميني وتضحياته

وفي حياة وسلوك ومواقف العلامة الأميني صاحب الغدير العبرة البالغة والدلالة الأكيدة على ذلك، فلقد جتّد هذا الرجل العظيم كل طاقاته وقواه نحو نهضة ثقافية - عقدية - موضوعية حتى انه كان لا ينام في اليوم والليلة في أحيان كثيرة إلا ثلاث أو أربع ساعات، وعندما أنهى موسوعة الغدير الخالدة وعزم على طباعتها لم يجد من يتكفل النفقات رغم كثرة أولئك الذين يدعون محبة أمير المؤمنين ﷺ بل وعشقه والذوبان فيه! لكن العلامة الأميني لم يكن ليترك عقبة المال تحول دون النجاحات الكبرى ودون إنجاز هذا العمل النهضوي الخالد، فقرر أن يبيع داره ليطلع ذلك السفر الكبير.. وهكذا صنع وطبع الغدير في ٢٥ ألف دورة تتكون كل دورة من ١١ مجلداً!

وهكذا يكون النهضويون! فأية قيمة للمال إذا لم يقع في طريق الهدف الأسمى؟ وكما يمكن العيش في دار مملوكة يمكن العيش في دار مستأجرة! وكما يمكن ان تعيش عيشة الأمراء يمكنك ان تعيش عيشة الفقراء، وما الضير في ان تعيش عيشة الفقراء إذا كان ذلك اسرع إيصلاً للهدف بل إذا كان هو الطريق للوصول إليه بان تبذل كل شيء لأجله؟

والغريب في الأمر أن أحد تجار طهران أطلع بعد ذلك على إنجازات العلامة الأميني فاتصل به وأخبره بانه سيتكفل كافة نفقات أعماله المتنوعة (من شراء النسخ الخطية الغالية.. إلى غيره) وقد وفي بوعدده فأمد الأميني بالمال وبدأ يبيع ما يملك ليكفل له ذلك حتى انه لعله باع داره أيضاً! والأغرب انه، حسب المنقول، اشترط على الأميني أن لا يذكر اسمه لأحد! وهكذا يكون المجاهدون والنهضويون وهكذا يجب علينا أن نكون أيضاً!

وإذا كان الشخص الواحد نهضوياً حقاً كما كان العلامة الأميني فترك بذلك أعظم الآثار، فما بالك بما لو كان كافة الشيعة نهضويين؟ بل لو كان الملايين منهم أو حتى مئات الألوف منهم نهضويين؟ ألم يكن وجه الأرض يتغير حينئذٍ وألم يكن نور الإسلام والولاية وقيم السماء والرسالة ومعارف أهل البيت تملأ وجه الأرض عندئذٍ؟

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد واله الطيبين الطاهرين